غزوة بدر بين القرآن والشعر

بين الشعر

للاستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٢ —

أما موقف الشعر من هذه الغزوة فلم يستطع شعراء المسلمين أن يصوروا جلالها ، وما امتلأت به نفوس المسلمين من غبطة وابتهاج إزاء هذا النصر المؤزر ، فما روى لنا من شعر قيل فى تلك الغزوة لا يناسب مالها من جلال ؛ وإن المرء ليحار فى تعليل هذه الظاهرة :

فقد يكون من أسبابها أن الفخر والتباهى والزهو مما كان مألوفا عند العرب ، قد حد الدين الجديد منه ، فلم يستطع الشعراء أن ينطلقوا على سجيتهم الأولى فى حرية غير محدودة

وقد يكون من أسبابها عقيدتهم بأن هذا النصر إنما أمدهم به الله ، فلم يكن من نوع هذه الانتصارات التى كانوا يحرزونها فى الجاهلية ، يعتقدون أن شجاعتهم هى التى أحرزتها

وقد يكون من أسباب ذلك أن هذا النصر المؤزر ربما كان وراءه فى قرارة نفوسهم ألم عميق على ما أصاب بعض أقاربهم فى هذه المعركة من القتل أو الأسر ، فإنه مهما تفاوتت العقيدة فى النفس لا يسلم المرء من تذكر هذه الصلة الطبيعية ، ورحم الله البحترى إذ يقول :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

شعر المسلمين فى هذه المعركة ليس بقوى فى جملته ، وقد انتحى فيه الشعراء مناحى شتى : فحينا يتجهون إلى عقيدة المشركين ، يعيرونهم بها ، كما قال حسان بن ثابت :

جحت بنو جمح بشقوة جدهم ... إن الذليل موكل بذليل

جحدوا الكتاب وكذبوا بمحمد ... والله يظهر دين كل رسول

وتأثر بعض الشعراء بالقرآن الذى نزل فى تلك الغزوة ، فتحدث عن الشيطان الذى غر المشركين وأغراهم ، حتى إذا وجد الدائرة قد دارت عليهم ولى ، تاركا جنده للهزيمة والأسر ، وتحدث عن الملائكة الذين أمد الله بهم جند المسلمين ، قال حمزة :

أولئك قوم قتلوا فى ضلالهم ... وخلوا لواء غير محتضر النصر

لواء ضلال قاد إبليس أهله ... نخاس بهم ، إن الخبيث إلى غدر

فقال لهم ، إذ عاين الأمر وانحنا ... برئت إليكم ، مالى اليوم من صبر

فإنى أرى مالا ترون ، وإننى ... أخاف عقاب الله ، والله ذو قسر

فقدمهم للحين ، حتى تورطوا ... وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر

وفينا جنود الله حين يمدنا ... بهم فى مقام مستوضح الذكر

فشد بهم جبريل تحت لوائنا ... لدى مأزق فيه منايانا تجرى

وألم ببعض هذا المعنى حسان بن ثابت فقال :

سرنا وساروا إلى بدر لحينهمو ... لو يعلمون بعين العلم ما ساروا

دلاهمو بغرور ، ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار

وقال : إنى لكم جار ، فأوردهم ... شر الموارد ، فيه الخزى والعار

كما سجل حسان ما قاله الرسول الكريم ، يوم وقف على القليب ، وقد طرح فيه قتلى المشركين ، فقال : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » فقال له أصحابه : « يا رسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟ » فقال لهم : « لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق » . سجل ذلك حسان فى قصيدة يقول فيها :

ينادى بهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب (١) فى القليب

من الديماجوجيين أن يسمموا أفكار الشباب وأن يجرفوهم فى تياراتهم ، لم تخط الجامعة خطوات حاسمة فى تمويد أبنائها التفكير الحر ، ولم تبث فيهم روح التحمس الجدى للاصلاح ، ولا يغرب عن البال ما دسته هذه الأحزاب من أفكار سامة لوثت التعليم الجامعى إذ تدور حول الحقد والطمع والطعن فى الغير بالحق وبالباطل

ومع ذلك فقد لاح فى الأفق بصيص من الأمل بتولى الدكتور طه حسين باشا أمور التعليم ، وأصبح لجامعة فؤاد الأول أخوات ثلاث ، نرجو أن تعمل كلها على تحقيق رسالة الجامعة فى المجتمع ، وأن توجه عنايتها للكيف لا للكم

فإنا نعلق على همة الوزير الأديب آمالا كبارا ونرجو على يديه خيرا كثيرا .

محمد محمد على

مدرس بمدرسة مغاغة الثانوية

---

١ — جمع كبكبة وهى الجماعة من الناس .

ألم تجدوا حديثي كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا صدقت ، وكنت ذا رأى مصيب

ومضى شعر المسلمين يسجل على قريش بغيها ، وبطرها الذى سجله القرآن من قبل ، فقال كعب بن مالك :

عجبت لأمر الله ، والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا بغوا ، وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من بليهم من الناس ، حتى جمعهم متكاثر

وقال حمزة :

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر وللحين أسباب مبيتة الأمر
وما ذاك إلا أن قوماً أفادهم [1]

فخانوا — تواصى بالعقوق وبالكفر

ويسخر بهم وبدعاويهم التى يمنيها الرياء والغرور ، قال أحد شعراء المسلمين :

وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم وماء بدر ، زعمتم ، غير مورود
وقد وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصريد [2]

وقال حمزة ساخراً :

عشية راحوا نحو بدر بجمعهم فكانوا رهونا للركية من بدر

أما من فر من المشركين يوم بدر فقد اشتفى منه شعر المسلمين بالتعيير والهزء والزراية ، ومن أوجع ما قيل فى ذلك ما أنشأه حسان بن ثابت فى قصيدة تعد من أقوى ما قيل من الشعر فى غزوة بدر ، وسجل فيها فرار الحارث بن هشام ، وتركه أخاه عمرا (أبا جهل) يقتل فى ميدان القتال ، فبعد عزل بدأه حسان بقوله :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة تسقى الضجيع ببارد بسام

وتخلص من الغزل قائلا :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة [3] ولجام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك لولا الإله وجريها لتركنه
حزر السباع ، ودسنه بحوافى [4]

ولم يحتمل الحارث بن هشام هذا التعيير وأوجعه ، واضطر أن يبرر فراره أمام القوم ، فقال :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى علوا فرسى بأشقر مزبد [1]
وشممت ريح الموت من تلقائهم فى مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل ، ولا يضر عدوى مشهدى
فصددت عنهم ، والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مرصد

وكان لهذا الحادث أثره ولا ريب فى نفس الحارث ، فأكثر من الشعر يتهدد به المسلمين ويتوعد ، كأنما يتنفس به عن نفسه

ومن أكثر ما ردده شعراء المسلمين يومئذ تنديدهم عظماء صرعى قريش ووصف هوانهم ، ملقين على أرض المعركة ، ينتظرهم مصير مؤلم فى نار جهنم ، ووصفهم الأسرى وقد شدوا بالأغلال وقيدوا بالأصفاد ، وها هو ذا حسان يصف دائرة المعركة التى دارت على المشركين ، فيقول :

طحنتهمو والله ينفذ أمره حرب يشب سعيرها بضرام
من كل مأثور يشد صفاده صقر إذا لاقى الكتيبة حامى
ومجدل ، لا يستجيب لدعوة حتى تزول شوامخ الأعلام
بالعار والذل المبين إذ رأوا بيض السيوف تقد كل هام

ويقول كعب بن مالك :

بهن أبدنا جمعهم ، فتبددوا وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فخر أبو جهل صريعاً لوجهه وعتبة قد عادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى وما منهم إلا بذى العرش كافر
وأمسوا وقود النار فى مستقرها وكل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم ، وهى قد شب حميها يزير الحديد والحجارة ساجر

وأشاد حسان وكعب بن مالك بموقف الأوس والخزرج من نصرة الرسول ، ولم يشيروا إلى بلاء المهاجرين فى تلك المعركة ، على عكس القرآن ، فإنه مدح المهاجرين والأنصار معاً ، كما ذكرنا ، ولعل ذلك راجع إلى أن جمهرة الجيش كانت من الأنصار ، قال كعب بن مالك :

وفينا رسول الله ، والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه يمشون فى الماذى [2] ، والنقع ثائر

وصمت الشعر عن دور المهاجرين ، الذين فضلوا العقيدة على

---

١ ـ أهلكهم ٢ ـ التصريد فى السق دون الرى
٣ ـ فرس كثير الجرى ٤ ـ حوافر

١ ـ الأشقر المزبد : الدم ، يريد أن فرسه جرح
٢ ـ كل سلاح من الحديد

المال والأهل ، بل حاربوا الأهل عن رضا ، فى سبيل هذه العقيدة، ولكن القرآن سجل لهم إيمانهم الحق ، ووعدهم بأكرم الوعود

وظهرت روح الإسلام فى شعر المسلمين، فرأينا فخراً بالالتفاف حول الرسول وطاعته والائتمار بأمره ، وتصديق دينه، قال شاعرهم

مستعصمين بحبل غير منجذم ... مستحكم من حبال الله ممدود
فينا الرسول ، وفينا الحق نتبعه ... حتى الممات ونصر غير محدود
واف وماض شهاب يستضاء به ... بدر أنار على كل الأماجيد

ورأينا اعتماداً على الله واستناداً إلى قوته فى قول حسان :

فما نخشى بحول الله قوماً ... وإن كثروا ، وأجمت الزحوف
إذا ما ألبوا جمعاً علينا ... كفانا حدهم رب رءوف

ولم ينس المسلمون ما هددهم به المشركون من الإغارة عليهم والأخذ بالثأر ، فهون شعراء المسلمين من ذلك ، بل أكدوا أن سيأتى يوم يغزون فيه مكة ، ويستولون عليها ، قال كعب ابن مالك :

فلا تعجل أبا سفيان ، وارقب ... جياد الخيل تطلع من كداء (١)

* * *

أما موقف شعراء المشركين من تلك الغزوة ، فيظهر أن قريشا تواصت على أن تخفى حزنها فى صدرها، وألا تبوح بآلامها، روى أن قريشا ناحت على قتلاها ، ثم قالوا : لا تفعلوا، فيبلغ محمداً وأصحابه ، فيشمتوا بكم ، فكف الشعراء عن البكاء، برغم ما كان يعتلج فى صدورهم من الهم والأسى

يروى أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة وعقيل والحارث ؛ وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له : انظر ، هل أحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة (يعنى زمعة) ، فإن جوفى قد احترق ، فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته ، فعند ذلك قال الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها البكاء من الهجود
فلا تبكى على بكر ، ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
وبكى إن بكيت على عقيل ... وبكى حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ، ولا تسمى جميعاً ... فما لأبى حكيمة من نديد

ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

ولكن لم يلبث الشعر أن انطلق من عقاله ، ومضى الشعراء يتحدثون عما يجيش فى صدورهم من الألم والتيظ مما ، فمضى بعض الشعراء يبكى فى حزن ومرارة من لقى مصرعه فى وادى بدر ، ويعدد عظماء هؤلاء القتلى ، ويصف ما نال مكة من الأسى لقتالهم ، فهذا شداد بن أوس يقول :

تحيى بالسلامة أم بكر ... وهل لى بعد قومى من سلام
فماذا بالقليب قليب بدر ... من القينات والشرب الكرام
وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى (١) تكلل بالسنام

وهذا أمية بن أبى الصلت يبكيهم ، ويثنى عليهم ، ويصف مكة بهم ، فيقول :

ألا بكيت على الكرا ... م بنى الكرام أولى المادح
ماذا ببـــدر فالعقـــ ... ـقل من مرازبة جحاجح
شمط وشبان بهـا ... ليـل مغاوير وحاوح
ألا ترون كما أرى ... ولقد أبان لكل لامح
أن قد تغير بطن مكـــ ... ـة ، فهى موحشة الأباطح

ومضى بعض الشعراء يبكون مصابهم الخاص ، أو يندبون بنى قبيلهم ، أو يرثون بعض عظمائهم ، ومن أمثلة ذلك رثاء الحارث بن هشام لأخيه أبى جهل ، إذ يقول فيه :

ألا بالقوى للصبابة والهجر ... وللحزن منى والحرارة فى الصدر
وللدمع من عينى جواداً ، كأنه ... فريد هوى من سلك ناظمه يجرى
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى ... رهين مقام للركية من بدر

ورثاء أمية بن أبى الصلت لصرعى بنى أسد ، وهو يمثل الحزن الدفين فى صدورهم :

فبنو عمهم إذا حضر البأ ... س عليهم أكبادهم وجمة

ولم يبك أبا جهل أخوه الحارث فحسب ، ولكن بكاه غيره من الشعراء ، فقد كان رأساً من رؤوس قريش ، فرثاه بعضهم بشعره كهذه القصيدة التى تنسب إلى ضرار بن الخطاب الفهرى ، والتى يقول فيها :

فآليت لا تنفك عينى بعبرة ... على هالك أشجى لؤى بن غالب
على هالك أشجى لؤى بن غالب ... أتته المنايا يوم بدر ، فلم ترم

وأخذ بعضهم يتوعد ، وينذر الأوس والخزرج بالانتقام

١ — جبل بأعلى مكة

١ — خشب أسود للصنم .

والأخـــذ بالثأر ، ويخفف من غلواء الأنصار ، فما ملأ قلوبهم من الابتهـاج بالنصر ، ويدعو الحكيمين دعوة حارة إلى ألا يناموا على الضيم ، وأن يجمعوا أمرهم على أن يأخذوا بثأرهم ، وتسمع النزعة القبلية صارخة ، والفخر بالنسب قويا ، حين يوازنون بينهم وبين الأوس والخزرج ، ويدعون إلى الدفاع عن معتقداتهم وآلهتهم التي ورثوا عبادتها عن آبائهم ، وامتلأ بذلك كله شعر المشركين من أهل مكة ، فترى الحارث بن هشام يقول :

فإن لا أمت يا عمرو أتركك ثائراً (١)

ولا أبق بقيا في إخاء ولا صهر

وأقطع ظهرا من رجال بمعشر كرام عليهم مثل ماقطعوا ظهري

أغرهم ما جمعوا من وشيظة (٢) ونحن الصميم في القبائل من فهر

فيال لؤى ، ذبوا عن حريمكم وآلهة لا تتركوها ...

توارثهـــا آباؤكم ، وورثتمو

أواسيها (٣) والبيت ذا السقف والستر

وجدوا لمن عاديتم ، وتوازروا

وكونوا جميعاً في التآسي وفي الصبر

ويقول ضرار بن الخطاب :

عجبت لفخر الأوس ، والحين دائر عليهم غداً ، والدهر فيه بصائر

وفخر بني النجار أن كان معشر أصيبوا ببدر ، كلهم ثم صابر

فإن يك قتلى غودرت من رجالنا فإن رجالا بعدهم ستغادر

ونترك صرعى تعصب الطير حولهم وليس لهم إلا الأماني ناصر

وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لهن بهـا ليل عن النوم ساهر

ولم ينس بعضهم أن يفتخر بما أبلى في ذلك اليوم من دفاع عن الصحب ، وإقدام في هذا الموطن الذي اعترف الشاعر بقسوته عليهم وشدته ، ترى ذلك في شعر أبي أسامة معاوية بن زهير إذ يقول معترفا بفرارهم ، وقتل الكثير من رجالاتهم :

ولما أن رأيت القوم خفوا وأن شالت نعامتهم لنفر

وأن تركت سراة القوم صرعى كأن حيارهم (٤) أذباح عتر (٥)

وكانت جمة (٦) وافت حماما ولقينا المنايا يوم بدر

نصد عن الطريق وأدركونا كأن زهاءهم (٧) غيطان (٨) بحر

وقال القائلون : من ابن قيس فقلت : أبو أسامة غير نكر

فأبلغ مالكا لما غشينا وعندك مال ، إن نبئت ، خبري

بأني إذ دعيت إلى أفيد كروت ، ولم يضق بالكر صدري

عشية لا يكر على مصاب ولا ذي نعمة منهم وصهر

وشاركت المرأة المشركة الرجل في البكاء على صرعى بدر ، وروى ابن هشام بعض شعر شاعراتهم ، كهند بنت عتبة ، وصفية بنت مسافر ، وهند بنت أثاثة ، فما يروى لأولاهن قولها :

أعيني جودا بدمع سرب على خير خندف لم يتقلب

تداعى له رهطه فدوة بنو هاشم وبنو المطلب

يذيقونه حد أسيافهم يعلونه بعد ما قد عطب

يجرونه وعفير التراب على وجهه عارياً قد سلب

ومن أجمل ما قالته المرأة من الشعر في هذه الغزاة ما أنشأته قتيلة بنت الحارث ، تبكي أخاها النضر ، وتعاتب الرسول :

يا راكبا ، إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ بهـا ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تخفق

مني إليك وعبرة مسفوحة جادت بوا كفها ، وأخرى تخنق

هل يسمعني النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمد ، يا خير ضنء كريمة في قومها ، والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من أسرت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

ويروى أن رسول الله لما بلغه هذا الشعر قال : « لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه » .

كان شعر المشركين في جملته أقوى في تلك الغزوة من شعر المسلمين ولا غرو فإنهم كانوا موتورين ، وكانت ريح الانتقام والغضب تفوح من شعرهم ، حتى ليخيل إليك أنهم قد مضوا إلى الأخذ بثأرهم :

ويلاق قرن قرنه مشي الصفاح الصافح

وبعد فقد صور القرآن الغزوة تصويراً إلهيا ، يتخذ منها دروساً وعظات لهداية البشر وإصلاح أمورهم ، أما الشعر فقد تحدث عن عواطف شخصية ليس لها طابع إنساني عام .

أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

---

١ ـ أي آخذ بالثأر ٢ ـ الوشيظة : الدخلاء في القوم .

٣ ـ الآسية من الناء المداواة ٤ ـ جمع ذبح ٥ ـ اسم ضم

٦ ـ الطائفة من القوم ٧ ـ منظرهم العجب ٨ ـ فيضان .